﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ
ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]

obeikandl.com

obeikandl.com

إهداء

إلى : جابــر عصفــور

رائد ومؤسس القراءة الإبداعية الجديدة للتراث

على دقة النظر وبراعة التطبيق.

obeikandl.com

obeikandl.com

المقدمة

إنَّ المفهوم البلاغى فى تراثنا العربى سار فى رحلة طويلة دخل خلالها فى دروبٍ وعرة وضيقة أحيانًا، وقد يتوقف عند فضاء واسع مرة أ مرات؛ ولكن هذا المفهوم يعود مرة أخرى إلى دروبه الضيقة.

ولقد ساعدت الوظيفة البلاغية منذ النشأة على نحت مفهوم خاص جاء إفرازًا لهذه الوظيفة بعد ذلك، وإذا كان عصر الجاحظ – بصفة محددة – قد ساهم فى تأسيس هذا المفهوم وإعطاءه صفات لاصقة فُرضت على الدرس البلاغى حتى الآن، فإنَّ النظرة هذه قد شكَّلت الوسائط والأبعاد بشكل خاص، حيث يعمل هذا الشكل على صبغ الرؤية البلاغية بالصيغة الخطابية والتى ما زالت فى أذهاننا، متلقين، وباحثين.

إنَّ البلاغة العربية ما زالت تخاطب جزئيات متفرقة نبعت من الفهم الخاطئ الذى جاء بعد مرحلة التأسيس (الجاحظ)، وبعد مرحلة الإبداع (عبد القاهر الجرجانى)؛ حيث هدم التأسيس بهذا الفهم الجزئى، وحطَّم الإبداع والشروح، وربط الأشباه بالنظائر، وتحمل هذه الروابط انطلاقًا من رؤية جزئية مسبقة جاءت بعد عنصر الأوج والضياء عند (عبد القاهر) ثم (حازم القرطاجنى).

وهذه الجزئيات حصرت البلاغة فى مجموعة من القوانين المحددة للإبداع وطرقه، ومن هنا أصبحت الرؤية البلاغية هى هذه القوانين، ثم تلك الجزئيات الشواهد البلاغية الثابتة التى تُردَّد فى كل عصر، كما تُردَّد فى كل مكان للدرس البلاغى.

كل ذلك آل بالبلاغة إلى سجنها فى تعريفٍ واحد محدد يعنى بازدواجية الحال والفصاحة، حيث كان فارس هذه الازدواجية (الخطيب القزوينى).

ولقد أشرنا إلى ذلك فى عملنا الآخر «التشكيل البلاغى بين التحليل والتركيب»؛ وهو الخطوة الأولى لخطوات مرسومة فى هذا المجال.

وكان لهذا التعريف المعتمد فى كل العصور – بعد ذلك – جوانبه السلبية المختلفة؛ أهمها: أنَّ الدرس البلاغى وقف على شىء معين يتمحَّل له الشواهد، فجاءت الأمثلة المعبرة عن التقسيمات المتشعبة ظنًّا أن هذا هو علم البلاغة بأقسامه، فظلت هذه الأمثلة المجلوبة من الشعر خاصة – ما أكثرها – هى كل الغاية من دراسة البلاغة.

إنَّ دراستنا الحالية هى انعكاس لدراسة البلاغة هذه بتعريفها، فلم ينظر إلى عصر النشأة عند الجاحظ ليُستفاد من منهجه التجميعى الخاص الذى يطلق العنان لميدان البلاغة من خلال موسوعاته، والتى تناولت موضوعات بلاغية فى جوانبها المتعددة، ولكن «البيان والتبيين» خُصِّص لهذا الدرس المجموع.

وإذا كان الجاحظ قد ركَّز – بشكلٍ أساسى – على فن الخطابة التى تقوم على المشافهة، فإن شواهده الشعرية يمكن أن تُضاف إلى جانب هذا الاهتمام الرئيسى؛ قد ينفسح المجال ويتسع.

وكان من المنتظر أن يأتى بعد الجاحظ من يُبلور هذه المرحلة التأسيسية ليرتقى بالبناء من مرحلة التأسيس لمرحلة التكوين؛ فكان بعد (عبد القاهر الجرجانى) علامة أصلية علت بالبناء بعد التأسيس، ثم (حازم القرطاجنى) الذى مكَّن لهذا البناء.

ولكن بناء عبد القاهر وحازم لم يؤسَّس عليه – بعد ذلك – للارتفاع والتشييد، بل اهتمت البلاغة بجوانب أخرى، فوضعت المصنفات البلاغية المطلوبة، والتى تهتم بالتقسيم والتصنيف والتفريع؛ ليس غير ذلك اللَّهُمَّ إلَّا بعض النظرات التى خرجت وشذت عن هذا المنهج.

من هنا انحصر الدرس البلاغى فى هذه الكتب المتأخرة وحدها، ولم ينظر لعبد القاهر أو حازم أو ابن الأثير أو السكاكى أيضًا نظرة بناء وإبداع؛ اللَّهُمَّ إلَّا بعض النظرات الخاطفة.

إنَّ موضوعات البلاغة ظلت ردحًا من الزمن الطويل هكذا مجرد مقتنيات على حد قول (**Leech**) يُنظر إليها ولا تساهم فى مسائل التطور الأدبى ذاته[1]، فهى لمجرد المشاهدة لا التفاعل.

---

(1) **G. Leech, Ligustle and the figures of rhetoric. In the book of essasys on style and Language, edite byr Foeler, London, 1966, p135.**

obeikandl.com

وإزاء ذلك فإن جهودًا يجب أن تُبذل إعادة قراءة البلاغة بأبعاد أكثر اتساعًا لتصبح جديرة بفنية العربية ذات الخصائص المميزة.

والقراءة النقدية الجديدة التى توجه إبداع العمل النقدى أو البلاغى تجاه البناء والقوة لابسًا بذلك ثوبًا قشيبًا هو من صنعه لا من صنع غيره، وإن تعددت الوسائل لذلك - إنها القراءة الفنية المجوَّدة.

إنَّ مثل هذه القراءة النقدية الجديدة بجانب الدراسات اللغوية الأسلوبية التى تضاف إلى اتساع الثقافة، وتعدُّد الأجناس الأدبية، وكذلك المذاهب الفنية؛ كل ذلك فرض رؤية بلاغية معينة، هى بالطبع ليست هذه الرؤية الجزئية المتحفية، بل هى رؤية تأتى من الانتقال من الجزء إلى الكل، والانتقال من طَوْرِ الأمثلة الثابتة لحيز اللغة الفنية وأبعادها وخصائصها الفنية، فالمثل البلاغى هو ذاته جزء من كل يجب العودة إلى قوامه الكلى ليُفهم فى سياقه البلاغى.

إننا يجب أن نترك القراءات التلخيصية التى تجتزئ التراث ظنًّا أنها تُظهره وإنما هى تُبعده عنا، وذلك لأن تراثنا فى عمله وحدة متكاملة.

والقراءة التلخيصية هذه تحدِّد تراثنا البلاغى فى حيز زمنه المقروء لا تعدوه، فأصبح أكثر غرابة عنا، نحاول الاقتراب منه فيبعد خائفًا؛ هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى فإن على دارس هذا التراث أن يربطه بعصره هو كما يربط بالعصر الذى أُبدع فيه. إنَّ القراءة بأبسط أنواعها – كما يقول راى – هى دمج وعينا بمجرى الشىء المقروء[1].

ودمج وعينا بالشىء المقروء على اختلاف أبعاده أمرٌ يدخل فيه تشابكات خاصة من حيث حيثيات المقروء مضافًا إليها أبعاد وعينا.

لذا فإن قراءة التراث البلاغى انطلاقًا من هذا الفهم يُدخله فى احتكاكات خاصة، تتمثل فى الرؤى الإبداعية الجديدة الـمؤسَّسة على الرؤى القديمة والـمأخوذة منها؛ فهى لا تلغيها،

---

(1) وليم راى؛ **المعنى الأدبى من الظاهراتية إلى التفكيكية**، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، دار المأمون للطباعة، بغداد، 1978م، ص17.

ولكنها تحوِّلها إلى ما يُناسب اللغة الوصفية الفنية لا تلك اللغة المعيارية[1].

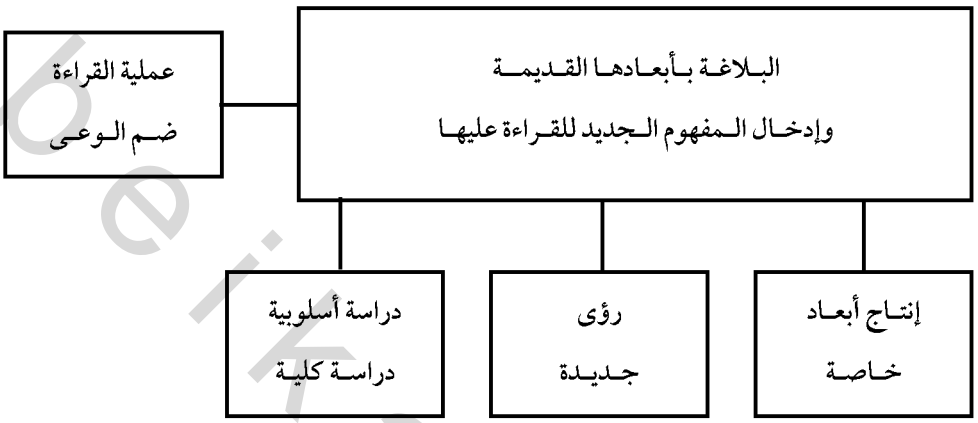

دينامية القراءة

والضم الذى يُشير إليه (راى) هو بداية عملية القراءة ذاتها وليس هو كل أبعادها المطلوبة، ذلك «أنَّ معنى القراءة تتضمن معنى الضم والنطق والإبلاغ معًا»[2]؛ أى أن إشارة (راى) هذه هى البداية وليست نهاية القراءة المطلوبة للتراث.

فعملية قراءة التراث - نقدى - إبداعى لا تقف عند الضم؛ فالضم أُولى خطوات التفاعل معه، وتفاعل هذا الضم بالوعى يعود إلى بداية إعادة قراءة الأبعاد التراثية القديمة؛ والتى تتمثل فى عناصر معينة، تتحرك بهذا الضم نحو الإيجابية التى تبنيه، فتصفه وتحلِّله وتفسِّره وتعلِّله، ثم تُخرج أشكالاً معينة، فالنية والبلاغة ميدان خصب لهذا.

وإذا كان التراث يحتاج إلى وعيٍ خاص بكيفية القراءة، وانطلاقاتها وإجراءاتها ؛ لأن

---

(1) يُنظر: عبد الحكيم راضى؛ فيما قاله فى الفصل الخامس عن اللغة والانحراف، بنظرية اللغة فى النقد العربى، مكتبة الخانجى، القاهرة.

(2) جابر عصفور؛ **قراءة التراث النقدى**، دار سعاد الصباح، ص21.

obeikandl.com

قراءته بعيدًا عن ذلك تتسم بالتقليد والعشوائية[1].

فإنَّ البلاغة تدخل ضمن هذه الرؤية وتلك القراءة؛ بل أن طبيعتها الخاصة وموضوعاتها الفنية تفرض مثل هذه القراءة، وكل هذه الأمور يجب اعتبارها أهم الميادين الخاصة للقراءة النقدية، كما يجب اعتبارها ميادين مترابطة.

ومن هنا يمكن أن نقرأ تراثنا البلاغى فى اتجاهين:

الأول: يتضمَّن قراءة هذا التراث؛ بجمع الأشتات البلاغية التى اعتبرت شواهد على تفريعات متشعبة ، ثم إدخال هذه الشواهد فى مجال هذه القراءة.

الثانى: ويتمثَّل فى الرجوع إلى العلامات الفعالة فى التراث؛ كالجاحظ، وعبد القاهر الجرجانى، ودورهما فى التأسيس والإبداع كعلامات هادية للطريق.

فالدراسة البلاغية الحقَّة يجب أن تقوم بالموازنة بين عبد القاهر وسابقيه؛ بداية بالجاحظ، ثم بينه وبين المعاصرين، وأخيرًا بينه وبين من جاء بعده - وتستمر هذه الموازنة على مر العصور يسير معها مقارنات فى التراث العالمى.

مثل هذه الدراسات تضع العلامات المحددة المفتقدة فى تراثنا النقدى والبلاغى، ولذا فإن عملنا - هذا - سيبدأ من حيث التأسيس وعلاماته.

وإذا كانت البلاغة - كما يجب لها أن تكون - هى فن الأسلوب وفن القول[2]، فإن دراستها تفرض على أصحابها الربط بينها وبين الأسلوب بالمفهوم الفنى الحديث وبين أبعادها، لأن الفصل بينها وبين الأسلوب له تأثيره السيئ على الطرفين كما ينوه (ريفاتير)؛ مشيرًا إلى طبيعة البلاغة، وعلاقتها بتقدير الجمالى والمذهب التأثيرى الذاتى؛ حيث يقول: «لقد ظل المذهب التأثيرى بذاتيته وعلم البلاغة بقواعده والتقدير الجمالى بأحكام القبلية، ظلت هذه العوامل كلها زمن طويلاً ذات تأثير سيئ على علم الأسلوب؛ من حيث هو علم الأساليب الأدبية»[3].

---

(1) جابر عصفور؛ نفسه، ص23 [ولقد اعتمدنا على هذه القراءة اعتمادًا كبيرًا].

(2) يُنظر: أمين الخولى؛ **فن القول**... ومضمون الكتاب كله.

(3) مايكل رفاتير؛ **معايير التحليل الأسلوبى** - مقال ضمن كتاب «اتجاهات البحث الأسلوبى»، جمع وترجمة وإضافة: شكرى عياد، دار العلوم، المملكة العربية السعودية، ص20.

obeikandl.com

إننا نلحظ من هذا القول ما حدث للبلاغة، وكذلك لعلم الأسلوب من ارتباط بقواعد مسبقة ومحفوظة وقديمة، وبذلك صرف الجهد عنهما فبعُدا عن مجال الدراسة الأدبية وتواريا فى شكلٍ انفصالى خاص بعيد عن مجال لغة التعبير الفنى.

فقواعد الدراسة المدرسية تأتى على قيم الجمالية لتركِّز على أبعاد خاصة تطلبها فى هذا الموقف التعليمى.

وإذا كانت الرؤية الخاصة للبلاغة تجعلها مساوية باللغة الفنية بل هى تلك اللغة ذاتها؛ فإن علم الأسلوب بإجراءاته يدرس لغة التعبير باعتبارها فنًّا أيضًا؛ فمن هنا نرى التلاقى بين علم الأسلوب وبين لغة البلاغة.

ولكى يوجد هذا التلاقى يجب أن نمتلك الحس الفنى الخاص الذى يُشير إليه (ماير لويكا) بقوله: «فعلم الأسلوب يدرس اللغة باعتبارها فنًّا، ولابد لهذه الدراسة من أن يمتلك الدارس حسًّا فنيًّا، وموهبة فى أن يتشرَّب عواطف الآخرين»[1].

إنَّ هذه الإشارة للويكا والتى نبَّه عليها (استيف أولمان) تفرض أن يكون التعبير الفنى باللغة ومجال علم الأسلوب، وهو بالتالى مجال الميدان البلاغى بمفهومه الواسع.

وتلك الانطلاقة – هى ذاتها – المحور الذى يجب دراسة البلاغة العربية منه، وهذا المحور سيجعل البلاغة أرحب ميدانًا.

وبذلك يُمكن لها أن تحتوى التعبير اللسانى كله، بل تخرج من هذه الدائرة إلى دائرة أرحب أيضًا، ولذا فإن (بيير جيرو) يقول: «إنَّ البلاغة قد احتوت التعبير اللسانى كله، ولكنها بالاشتراك مع الفنون الشعرية قد احتوت الأدب جميعًا»[2].

ولكن إشارة (بيير جيرو) لهذا الاحتواء الكلى للأدب – فى نظره– تشترط اشتراك التعبير اللسانى مع الفنون الشعرية.. ويضيف معبرًا عن أنَّ البلاغة لا تقف عند هذا الحد المعروف

---

(1) استيف ألمان؛ **اتجاهات جديدة فى علم الأسلوب** – ضمن كتاب شكرى عياد «اتجاهات البحث الأسلوبى»، ص84.

(2) بيير جيرو؛ **الأسلوب والأسلوبية**، ترجمة: منذر عياش، ص20.

للأدب من وجهة نظره، والتى لا تحدد إلَّا عنده هو، بل هى أرحب من ذلك أيضًا، إنَّ هذه الرحابة والاتساع تجعلنا لا نقف عند الشعر وحده، بل نتعداه إلى فنون أخرى خاصة تُثرى ميدان الدراسة الأسلوبية والبلاغية.

إنَّ البلاغة قديمًا سيطرت على جزئيات من الشعر والقول، ولكننا نراها أكثر حيوية وديناميةً فى الرواية أيضًا[1].

ومن هنا نرى أهمية الربط الضرورى بين البلاغة والأسلوب الوليد؛ صحيح أنَّ البلاغة لها تاريخ ولها كذلك أبعادها ولكن ارتباطها بالأسلوب سيجعلها فى ميادين جديدة وبعيدة - «فعلم الأسلوب عندما شب أصبح هو البلاغة الجديدة فى دورها المزدوج؛ كعلم للتعبير، ونقد للأساليب الفردية، لكن هذا الدور لم يتكون مرة واحدة؛ بل أخذ ينمو ببطء تدريجى ليكتسب خلاله العلم الجديد تحديدًا دقيقًا لموضوعه وأهدافه ومناهجه»[2].

وهذه الوظيفة المزدوجة هى وظيفة مشتركة كذلك بين ميادين الأسلوب وميادين البلاغة، أو لنقُل أنها ميادين واحدة. إذًا فليس هناك فصل بين أسلوب الإبداع الأدبى الذى يتسم بالفردية الفنية، والتى يتمتع بالخصوصية بجانب تمتعه بالأبعاد الإبداعية وخصائصها. وهذه ثنائيه يجب أن تحقق فى الدرس البلاغى الحديث أسلوبًا ورؤية - فيقول (جون مدلتون مرى): «إننا نرى لو ناقشنا كلمة «الأسلوب» ولو تأملناها كشىء مهم فسوف نراها تشمل كل جماليات الأدب بجانب النظريات الأدبية كذلك»[3].

وإشارة (جون مدلتون مرى) - هذه - جاءت فى حديثه عن الأسلوب ومشكلاته فى كتابه (**The Problem of Style**)، لقد انداحت دائرة الأسلوب فى شكلٍ فنى كبير ومتسع،

---

(1) لصاحب هذا البحث محاولاته فى بلاغة الرواية، وتتمثل هذه المحولات فى:

أ- دراسة حول أسلوبية الرواية وعناصر التراث؛ ضمن رسالة ماجستير عن السيرة والرواية، عام 1983م.

ب - الأبعاد البلاغية فى الرواية؛ بحث لمؤتمر الرواية بجامعة القاهرة، 1992م.

(2) صلاح فضل؛ **علم الأسلوب**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص132.

(3) **J. murr the problem of style, oxford press, 1873.**

openkandil.com

لتشمل – كما يُشير ميرى – جوانب النقد والبلاغة، وهذا الربط بين البلاغة والنقد فى قِرَانٍ واحد يجعل النقد من بين الأساليب الإبداعية فيدخل فى هذه الدائرة.

إنَّ فهم الأسلوب عند الغربيين – كما يُشير شكرى عياد – هو البلاغة؛ والبلاغة لديهم تمثِّل كل مجالات الثقافة والإبداع؛ يقول: «أما الأسلوب (**Stype**) عندهم – يقصد الغربيين – يأتى مرادفًا للبلاغة، وربما خصَّه بمعنى أضيق من ذلك؛ هو مستوى التعبير»[1].

والحديث عن أسلوبية البلاغة يضرب بجذوره إلى اللغة الفنية، فالمشكلة عند الأديب – الشاعر وغيره – هى مشكلة تشكيل لا توصيل[2]، هى مشكلة الفنية واللغة بجانب العلاقات الأخرى، فالبلاغة تعكس إلى جانب اللغة الفنية الفلسفة والثقافة، وتعكس مثالاً عقليًّا أعلى[3].

وهذا الانعكاس مع طبيعة البلاغة العربية؛ يضاف إليهما القراءة النقدية الحديثة، كلها عوامل تُفرض لمنهج معين، يتسع لدائرته مع مفهوم القراءة الجديدة، وهذا المنهج يبدأ منذ مرحلة التأسيس – البذور الأولى – التى تنبت فى أرض اللغة التوصيلية ويسير معها، يتعدها فى رحلتها التكوينية حتى تستوى على سوقها فى مراحل ازدهارها ثم مراحل عودتها.

ومثل هذه الدراسة مع رحلة البلاغة هى رحلة خادعة مغرية ومراوغة، وذلك لوجود كَمٍّ كبير من مؤلَّفات والمصنفات والشروح والتلخيصات، وهو كم علمى موجود يُعَدُّ مجالاً لكل من أراد أن يُدلى بدلوه فى بئر البلاغة العميق، فالماء غزير ولكن الآلة يجب أن تكون دقيقة محدده تصيب النقطة المطلوبة من الدراسة.

إنَّ تتبُّع هذه الرحلة يجب أن يكون من منهج معين، يسير حسب أنساق لا تلخيصات للتوصل إلى فهم صحيح – «فنحن لا نزال نؤمن بأن التوصل إلى فهم صحيح للبلاغة أو لأى شىء آخر لا يمكن أن يتم إلَّا إذا لاحظنا التغيرات المستمرة، التى تتناول عناصر هذا الشىء،

---

(1) شكرى عياد؛ اللغة والإبداع (مبادئ علم الأسلوب العربى)، القاهرة، 1988م، ص23.

(2) عبد المنعم تليمة؛ **مداخل إلى علم الجمال الأدبى**، دار الثقافة، ص99.

(3) بيير جيرو؛ **الأسلوب والأسلوبية**، ص17.

openkandil.com

كما تناوله شكله العام من علاقات هذه العناصر بعضها ببعض»[1].

لذا فإن بحثنا فى مفهوم البلاغة يسير فى أُطر محدده؛ بادئًا بالأصول والتأسيس، وإذا أردنا التركيز على هذه البداية فإن الجاحظ بعمله الموسوعى «البيان والتبيين» وأعماله الأخرى يفرض ذاته على هذه المرحلة كوحدة واحدة غير مشتركه مع غيرها، ولهذا جاء هذا البحث فى أربعة محاور فُرضت وفق منهج التناول. إنَّ الجاحظ بكل الأبعاد وحدة متكاملة تمثِّل البحث الأولى – الأساسى – فى المفهوم البلاغى؛ فكانت مرحلته: مرحلة التأسيس.

ومن هنا كانت هذه الدراسة خطوات تاريخية، بدأنا خطوتها الأولى من «التشكيل البلاغى بين التحليل والتركيب».

(1) شكرى عياد؛ اتجاهات البحث الأسلوبى، ص123.

obeikandl.com

obeikandl.com

المدخل

obeikandl.com

obeikandl.com

إنَّ الحديث عن مفهوم البلاغة عند (الجاحظ) - بصفةٍ خاصة - من الأمور التى تحتاج إلى جهد معين، وذلك لمكانة الجاحظ المعروفة من جهة، ولمنهجه الخاص فى جمع المادة العلمية من جهةٍ ثانية، ثم لأثر ما بذله من جهد فى هذا الميدان واستمرار هذا الأثر عصورًا بعده من جهةٍ ثالثة.

ولقد نشأ الجاحظ فى عصرٍ كثرت فيه المؤلَّفات المتعددة؛ من بلاغة، وشروح، ومختارات، وطبقات... هذا إلى جانب المترجمات وتفريعها، ولهذا كانت هناك ضرورة ربط طبيعية هذا العرض بالمفهوم البلاغى توليدًا، (ودينامية) - **والبلاغة** - كما رأينا - **هى مجال لانعكاس الثقافات برغم تعددها، وتفريعها.**

ولقد انعكاس هذا الفهم على أسلوب الجاحظ، فذهب يجمع مادته العلمية فى كتابه «البيان والتبيين»؛ حتى كان بحثًا مهمًّا، وموسوعة أساسية فى خصائص التعبير البيِّن؛ أى فى صناعة الكلام، وما تمتاز به اللغة من طاقات الإبداع والإفصاح»[1].

ولهذا أشار (شوقى ضيف) مبينًا قيمة موسوعة «البيان والتبيين» هذه فقال: «فالبيان والتبيين موسوعة وَسِجِلٌّ حافل بالمواقف البلاغية الخاصة عند العرب»[2].

ولكنَّ هذا السجل الحافل اعتمد على طريقة متماسكة صنعت له منهجًا مائزًا، رغم كِبَر حجم المعلومات التى أودعها الجاحظ هذا الكتاب، فقد يُظَنُّ أنَّ الجاحظ فى سجله هذا أخذ من كل شىء بطرفٍ فجاد متعددًا متشعبًا لا رابط له فى موضوعاته.

ولكنَّ هذا الظن يذهب عندما تتعمق قراءة هذا العمل المهم، فترتيب الموضوعات فى الكتاب جاء بعد جهد خاص، ويظهر هذا الجهد عندما أشار الجاحظ نفسه فى حديثه عن

---

(1) عبد السلام المسدى؛ **قراءات مع المتنبى والشابى والجاحظ وابن خلدون**، دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع، 1993م، ص100، 101.

(2) شوقى ضيف؛ **البلاغة وتطور تاريخ**، دار المعارف، القاهرة، ص64.

obeikandl.com

البيان؛ بأنه كان ينوى أن يصدر الكتاب بهذا الباب، ولكننا نرى أن هذا الترتيب جاء وفقًا لمنهج خاص أنتجه، ولذا فإنه لم يشأ أن يغيِّر من هذا الترتيب الذى رآه متكاملاً ومتماسكًا، فارتضى منه هذا البناء المنهجى المتماسك والمحكم.

ومثل هذا الأمر يُظهر لنا أهمية الكتاب من جهةٍ، ويُظهر لنا أهمية موضوعاته وترتيبها من جهة ثانية. وتبدأ هذه الموضوعات باللغة والإشارة إلى النطق وسلامته؛ حيث استخدم الجاحظ أسلوبًا عمليًّا يُظهر خبرته وقدرته، فالكتاب من أواخر كتبه، وهذا ما يدل على ظهور القدرة والخبرة فى التناول بجانب هذا التمثل الثقافى المتعدد، فـ«البيان والتبيين» هو من آخر ما ألَّف الجاحظ[1].

وهذا مما يعبر عن مكانة هذا الكتاب بالموازنة بينه وبين مؤلَّفات الجاحظ نفسها - «فهو حصاد عمر طويل انقضى فى البحث والتصنيف، وهو ثمرة تمثُّل ثقافى طويل المدى، وتجريد فكرى بعيد الأغوار»[2].

كما أننا نرى الكتاب تعبيرًا عن منهجٍ علمى اعتمد على الجمع الميدانى للمادة العلمية، وذلك ما نراه أثناء عرضه للفصاحة القولية؛ عندما قدَّم مجموعة من الأمثلة الميدانية الدالة على النطق وأبعاده، وسلامته المطلوبة. لقد أصرَّ الجاحظ على هذا المذهب التجميعى الخاص، وحديثه عن البلاغة مؤسَّس على هذا الجمع الميدانى كذلك، ولا يختلف أسلوبه فى سائر الكتاب عن ذلك.

إنَّ هذا المنهج له تأثيرة - بالضرورة- على تحديد مفهوم البلاغة، وله تأثيره أيضًا على ألَّا يحدد الجاحظ مفهومًا معينًا لها، تضيق به العملية الإبداعية التشكيلية.

ويأتى كتاب «البيان والتبيين» لينضم إلى مؤلَّفات الجاحظ ذاتها، فيدخل مع رسائله، وحيوانه وبُخلائه ومبحاسنه وأضداده... ليُكمل الصورة الخاصة لمنهجه؛ فالجاحظ فى أعماله

---

(1) عبد السلام المسدى؛ **قراءات مع المتنبى والشابى والجاحظ وابن خلدون**، ص100.
(2) نفسه؛ ص100.

– يريد إنتاج– موسوعة فنية متميزة، متكاملة، تتداخل عناصرها بعضها البعض حتى تكتمل رؤيته فيها.

وإذا ما انطلقنا من محور الجاحظ فى مؤلَّفاته لنربطها بدوائر ثقافة العصر – والتى أشرنا إليها – حيث جاء عصره معبِّرًا عن تماسك دوائر متعددة من الثقافات المتنوعة وكذلك المناهج المتشعبة، فلقد هضم هذه المناهج، وتلك الأبعاد؛ فسنجد أن هناك دائرة انداحت دائرته الخاصة بدوائر عصره لتحكم السلسلة المعرفية.

وهذه السلسلة المعرفية لها أهميتها؛ من حيث المفهوم البلاغى الخاص الذى رأيناه– كما يُشيرجيرو– معبرًا عن الثقافة بكل أبعادها.

وحديث الجاحظ عن البلاغة يُعَدُّ من السلسلة المعرفية؛ فهو جزء منها يتبوء مكانه فى محورها خارجًا إلى نطاقٍ أوسع.

وبالطبع فقد أثرت هذه السلسة المعرفية الخاصة على نشأة الفهم البلاغى، وصيغتها المميزة. لقد كانت الثقافة الاعتزالية من أهم محاور هذه الدوائر؛ فالمعتزلة عدُّوا البلاغة أهم آلة للتعبير عن آرائهم الخاصة، ولذلك فإنهم رجعوا إلى استبانة المقاييس النقدية والبلاغية وجعلوها أدلة خاصة لهم، فخضعت البلاغة منذ بداية ميلادها العلمى للهدف الاعتزالى، الذى يركِّز على الاهتمام بفنون القول القائمة على الحُجَّة، فكانت تعليميًا ارتبط بالخطابة، كما ارتبط بالمقدرة القولية وفهم الإمكانات اللازمة لذلك.

لهذا فإن مقاييس البلاغة ترتبط بوظيفة الإقناع؛ لأنها فى هذا الفن الذى يعتمدون عليه فى جدلهم – «فهى عنصر فهم فى الإقناع غايته الجدل الكلامى، ولهذا كان بعض علماء المعتزلة معلمى بلاغة»[1].

إنَّ هذا التكوين البلاغى، وذلك الارتباط القولى لنشأة البلاغة كان سببًا فى سيطرة الجانب القولى؛ فكانت مكانة الجانب الخطابى، وسيطرتها على نشأة البلاغة العربية.

---

(1) إحسان عباس؛ **تاريخ النقد الأدبى عند العرب**، بيروت – لبنان، ص66، 67.

obeikandl.com

لقد ظلت البلاغة العربية قرينة هذه البداية، وتلك النشأة – «فمهما تكن الأسباب التى دعت إلى طغيان الخطابة وارتباطها بالبلاغة، فإن شيئًا أهم من ذلك كان سببًا فى سيطرة النزعة العقلية فى التفكير البلاغى عند العرب، وهو أن يكون أول كتاب فى البيان العربى يؤلِّفه رجل من كبار رجال المعتزلة وعلماء الكلام، الذين كانوا حريصين أشد الحرص على أن يزودوا أنفسهم بالثقافات الأجنبية وخاصة بالفلسفة والمنطق»[1].

ولهذا انصبَّ الفهم البلاغى فى إناءِ الهدف التعليمى، فجاءت أنساقه مرتبطة بهذا الهدف لا تبرحه، وانسحبت هذه الأنساق – بعد ذلك – فى كل العصور المتتالية، حتى وقفت عند عبد القاهر، وتصب فى إناء آخر أكثر شمولاً واتساعًا، ولكنها تخرج منه بعد ذلك إلى أوعية ضيقة – سوف نعرض لها إن شاء الله فى الدراسات القادمة –.

إنَّ هذه المرحلة «مرحلة البداية والتجميع» تُشبه مرحلة التكوين الخاص للبلاغة عند اليونانيين؛ حيث نلحظ اهتمام (أرسطو) بالخطابة، وبثقافة الخطيب وذلك فى كتابه «الخطابة»؛ والذى يختلف عن كتابه «فى الشعر».

إنَّ التاثير بالفن الخطابى اليونانى عند المعتزلة؛ وخاصة لدى الجاحظ، أمرٌ بارز فى اهتماماته بالفن القولى للجمهور. وذلك البرنامج من طبيعة الهدف الاعتزالى القولى، ولكن هذا التأثير اندمج مع طبيعة البلاغة العربية.

فالمواجهة المباشرة للقائل بجمهور المتلقى هى أهم علامات البلاغة فى ميلادها الأول عند اليونانيين – «لقد وُلِدَت البلاغة فى اليونان، وكانت عبارة عن فنٍّ يُستخدم لتأليف خطاب يُلْقَى على الخطبة أو على المنبر»[2].

وهذا الميلاد هو ذاته ميلاد النزعة العربية فى عصر الجاحظ، لقد أخذت كل أبعاد الفن الخطابى الذى ارتكز على المقدرة القولية، بجانب هذه الإيماءات والحركات، وتنوع الأداء؛ من

---

(1) محمد زكى العشماوى؛ **قضايا النقد الأدبى والبلاغى**، ص226.

(2) بيير جيرو؛ **الأسلوب والأسلوبية**، ترجمة: منذر عياش، ص9.

صمت وغير ذلك. هذا الأداء الذى يهدف - أولاً وقبل كل شىء - إلى الإيصال والتوصيل القولى للمتلقى الذى يواجه القائل فى مباراة كلامية يسخِّر فيها القائل كل أسلحته الخاصة فى حسم الموقف المواجه له، حيث لابد من الانتصار، وإلَّا فلا مجال له بين البلغاء، وأصحاب القول.

وهذا التشابه الحادث فى نشأة البلاغة بين اليونان والتراث العربى، يُصحابه تشابه فى الهدف التعليمى؛ والذى يؤثر - بطبعه - فى التقسيم القولى، فأقسام البلاغة التى يُشير إليها (بيير جيرو) تعبِّر عن هذا التشابه؛ فيقول: «إنَّ أقسام البلاغة كما ظهرت فى الكتابات الرائعة لأرسطو، وشيشرون، وكافيتليان تتمثَّل فى أربعة أقسام هى: الإبداع، والترتيب، والتعبير، ثم الفعل»[1].

إنَّ هذه الأقسام تدخل ضمن الوظيفة والأداة فى البلاغة الجاحظية، والتى تكثف فى العقل الذى «يعالج القصد فى سرعة النطق، والحركات، وتغيرات الملامح»[2].

وبذلك تكون وظيفة البلاغة - منذ النشأة - مهتمة بجوانب الإقناع القولى المواجه بين الطرفين «القائل، وجمهور التلقى». لذلك كان لهذا الفن القولى الفعلى أبعاده ووسائطه، بجانب سماته الخاصة؛ حيث يجب أن يتصف بسمات معينة، ومن هنا - كذلك - جاءت تعريفات البلاغة المتعددة الجوانب المختلفة الأبعاد والمشارب.

ولكل ذلك فإن دراستنا للبلاغة وتعريفاتها - عند الجاحظ - فى هذا البحث تتمثَّل فى أربعة محاور هى:

الأول: يتحدث عن دوائر التأصيل المعرفى المكوِّن للمفهوم البلاغى.

الثانى: يتناول هندسة تشكيل التعريفات وعرضها.

الثالث: يتناول تأثير الامتداد وديناميةالمفهوم.

---

(1) نفسه؛ ص10.

(2) نفسه؛ ص10.

الرابع: يتحدَّث عن فاعلية الأنساق البلاغية وتوليدها.

ولقد أخذ كل محور عنوانًا يلخِّص طبيعة التناول، وتقنية العرض، كما شفع كل محور – أيضًا – بمحصلات تُظهر أبعاده، وتحلِّلها، مضيفة رؤى أخرى تساعد على فهم ما عُرض فى المحور نفسه.

obeikandl.com